المحاضرة الاحدى عشرة: العلاقة البيداغوجية ورهاناتها

تعتبر العلاقة البيداغوجية إحدى الركائز الأساسية في العملية التعليمية، حيث لا تقتصر على نقل المعرفة فحسب، بل تتجاوز ذلك لتشمل التفاعل الإنساني والتواصل الفعال بين الأستاذ والطالب. فهذه العلاقة ليست مجرد إطار شكلي داخل الفصل الدراسي، بل هي عملية ديناميكية تتأثر بالسياق التعليمي، والثقافة المؤسسية، والأنماط التربوية المتبعة. إنّ نجاحها يرتبط مباشرةً بجودة التدريس، وتحفيز المتعلمين، وخلق بيئة تعليمية داعمة تعزز من فرص النجاح الأكاديمي والارتقاء بالمهارات الفكرية والاجتماعية للطلاب. ففي هذه المحاضرة سنتطرق الى العلاقة البيداغوجية من حيث مفهومها، ابعادها، أهميتها وصولا الى الرهانات التي توجهها.

1- تعريف العلاقة البيداغوجية:

تشير العلاقة البيداغوجية المعروفة أيضا بالبيداغوجيا العلائقية، إلى بناء بيئة صفية تقوم على الثقة، والرعاية، والاستقلالية، إذ يرتكز هذا المفهوم على الدور المحوري للعلاقة بين الأستاذ والتلميذ في العملية التعليمية، حيث تهدف إلى توفير مناخ داعم ومحفز للتفاعل والتعلم داخل الفصل الدراسي، وتنشأ هذه العلاقة بشكل طبيعي من خلال التفاعل الاجتماعي وتوظيف أساليب تدريس فعّالة تعزز التواصل والتفاهم بين الطرفين(OKOYE,2022,p71).

كما يمكن تعريف العلاقة البيداغوجية في أنها مجموع التفاعلات التي تحدث داخل جماعات التعلم، حيث تشمل العلاقة بين المدرسين والمتعلمين، وكذلك بين المتعلمين أنفسهم. ويؤكد هذا التعريف على أهمية التفاعل المباشر والناجح بين المدرس والمتعلم في إنجاح العملية التعليمية، وبما أن المدرسة هي شبكة من العلاقات المركبة التي تربط مختلف الفاعلين التربويين، كالعلاقة بين المدرس والمتعلم والعلاقة بين المتعلمين بعضهم البعض والعلاقة بين المدرس والإدارة والعلاقة بين المدرس وجمعية الاولياء. وبذلك، تعد العلاقة البيداغوجية أحد العوامل الأساسية التي تحدد جودة التعليم وفعاليته داخل المؤسسة التربوية. (اقريطب،2020، ص152)

هي العلاقة التي تتم بواسطة ضوابط محددة، تتم داخل المدرسة التي تحكمها قوانين وتسير بواسطة مراسيم إدارية، فذلك يعطيها الطابع الرسمي، ويكون لدور الأستاذ أهمية بالغة في تحقيق الأهداف التعليمية للتلميذ، كما تعرف على انها علاقة تتم بين الأستاذ والتلميذ ضمن ضوابط محددة ذات أهمية بالغة من أجل تحقيق الأهداف التعليمية المرجوة.(مرزوقي وقرومي،2022، ص221)

ينبغي أن تكون العلاقة البيداغوجية بين الأستاذ والطالب مبنية على مبدأ العقد والتعاقد البيداغوجي، فالأستاذ يخطط وينظم الفعل التعليمي، ثم يطالب الطلبة بالأهداف، ويشركهم في العمل على تحقيقها، والكل يعمل على تنفيذ العقد والعمل على بلوغ الأهداف المتوقعة.(عكاشة، 2012،ص787)

2- أبعاد العلاقة البيداغوجية:

تتميز العلاقة البيداغوجية في أن لها أبعاد متكاملة وهي كالاتي:

- **علاقة إنسانية:** تقوم على التفاعل المباشر بين المدرس والتلاميذ، مما يجعل العنصر الإنساني جوهريًا في تحقيقها.
- **علاقة تواصل بيداغوجي:** التعليم يعتمد بالدرجة الأولى على التواصل، سواء بين المعلم وتلاميذه أو داخل المجتمع المدرسي ككل.
- **علاقة سيكولوجية وسوسيولوجية:** نظرًا لأن التعليم يحدث غالبًا داخل جماعة القسم، فإن له أبعادًا نفسية واجتماعية تؤثر على سير العملية التعليمية.

لا تقتصر العلاقة التربوية على التفاعل بين المدرس والتلاميذ فقط، بل تمتد إلى:

- علاقات التلاميذ ببعضهم البعض.
- علاقات التلاميذ مع باقي الفاعلين التربويين في المؤسسة. (حناط وخلفاوي،2015، ص139)

3-مكونات العلاقة البيداغوجية:

تجمع العلاقة في بنيتها خمسة مكونات هي كالاتي:

- **شخص واحد راشد** : فالمدرس الراشد يمتلك سلطة تجعله في موقع أعلى من المتعلم، ومن ثم، تتصف العلاقة بين الطرفين باللاتوازن فشخصية المدرس وكفاياته المعرفية والمهنية هي تمنحه القدرة على التحكم في تدبير هذه العلاقة."
- **المتعلمون** : تتباين أسباب تنشئتهم، وتختلف مواصفاتهم في التعلم والتحصيل، إضافة إلى تمايز تمثلاتهم وعلاقاتهم التفاعلية كأعضاء الجماعة القسم.
- **العلاقة المنتظمة** : إن جماعة القسم محكومة باستعمال منتظم للزمن الدراسي، فالإيقاعات المدرسية تؤثر في عمل الأستاذ وتعامل المتعلم مع المواد الدراسية : مثلا حصص الصباح تختلف عن حصص المساء بخصوص مستوى التأثير في العلاقة بين المدرس والتلاميذ.
- **التواجد في الجماعة** : رغم أن الفصل الدراسي يعتبر جماعة، فإن الفروق الفردية تفرض نفسها. فداخل هذه الجماعة، توجد جماعات صغرى، إضافة إلى آلية الزعامة سواء كانت ظاهرة أم خفية.
- **المؤسسة النظامية** : جماعة القسم ينظمها القانون، فمثلا المقررات الدراسية محددة سلفا، كما يجب ضبط الحضور والغياب والتأخر عن عمل الجماعة.(تفروت،2009، ص44)

4-أنماط العلاقة البيداغوجية:

تصنف العلاقة البيداغوجية بين الطالب والأستاذ إلى عدة أنماط، تختلف حسب طبيعة التفاعل بين الطرفين وأسلوب التدريس الذي يعتمده الأستاذ. ومن بين هذه الأنماط:

- **النمط الإنساني للعلاقة** :يقوم هذا النمط على التعامل الإيجابي بين الأستاذ والطالب، حيث يسود الاحترام المتبادل، ويتم تشجيع الحوار والمناقشة أثناء الحصة الدراسية. كما يحرص الأستاذ على تثمين مبادرات الطلاب، والمساواة بينهم في المعاملة، بالإضافة إلى الاهتمام بشؤونهم، مثل السؤال عن الغائبين منهم، مما يخلق بيئة تعليمية محفزة وداعمة.
- **النمط المتشدد** للعلاقة: يتسم هذا النمط بالجمود في التعامل، حيث يعتمد الأستاذ أسلوبًا صارمًا يرفض فيه النقاش والحوار، ويعتمد على النقد الهدام والتقليل من قيمة أفكار ومبادرات الطلاب.

كما أن العلاقة بين الأستاذ والطالب تنتهي بانتهاء الحصة التعليمية، مما يحدّ من تفاعل الطلاب وانخراطهم في العملية التعليمية.

- **النمط المتسيّب للعلاقة:** في هذا النمط، يظهر الأستاذ عدم اهتمامه بشؤون طلابه أو متابعة أعمالهم، كما قد يبالغ في التحدث عن حياته الشخصية أثناء المحاضرات بدلًا من التركيز على المحتوى التعليمي. يؤدي هذا الأسلوب إلى ضعف التواصل البيداغوجي وانخفاض مستوى التحفيز لدى الطلاب، مما يؤثر سلبًا على العملية التعليمية.(زرقين، 2020، ص 174)

يعد اختيار الأستاذ للنمط المناسب في التعامل مع طلابه عاملا حاسما في تحقيق أهداف التعلم وتعزيز بيئة دراسية محفزة وفعالة.

5- رهانات العلاقة البيداغوجية:

العلاقة البيداغوجية تشكل عنصراً جوهرياً في العملية التعليمية، حيث تؤثر بشكل مباشر على جودة التعلم والتفاعل داخل الفصل الدراسي. ويمكن تلخيص أهم رهاناتها فيما يلي:

- **الانتقال إلى البيداغوجيا الرقمية**

مع التحول الرقمي والاعتماد المتزايد على التعليم عن بعد، أصبح بناء العلاقة البيداغوجية أكثر تعقيدا نتيجة غياب التواصل المباشر، مما يستدعي البحث عن استراتيجيات جديدة لتعزيز القرب البيداغوجي في البيئات الرقمية، كما يحتاج الأساتذة إلى تطوير مهاراتهم في استخدام الوسائل التكنولوجية لضمان استمرار التواصل الفعال مع الطلاب وتحفيزهم على التفاعل.

في هذا السياق، يبرز دور المعلم في تيسير التفاعل بين المتعلمين وتعزيز علاقتهم بالمحتوى التعليمي، حيث يعد الدعم التوجيهي عنصرًا أساسيًا في نجاح التعلم عن بعد. ويتطلب ذلك التركيز على جودة التفاعل وكثافته، وتهيئة بيئة تعليمية تقوم على الاحترام المتبادل، والتعاون، والثقة، والدعم، والانفتاح، والأصالة، والتحفيز، ولتحقيق ذلك ينبغي على المعلم التواصل المستمر مع الطلاب، الاستجابة السريعة لاستفساراتهم، تقديم التغذية الراجعة الفعالة، والاستفادة من قنوات الاتصال المتزامنة وغير المتزامنة لضمان تجربة تعليمية محفزة. أما في حال ضعف هذا التواصل أو افتقاره إلى الدعم الكافي، فقد يشعر المتعلمون بالعزلة، مما قد

يؤثر سلبا على اندماجهم في العملية التعليمية وقدرتهم على التكيف مع بيئة التعلم الرقمية(Schmidt–Hertha & Bernhardt,2022,p19).

- **التوازن بين السلطة والتوجيه:**

يطرح "بوبر" مشكلة العلاقة غير المتوازنة في التعليم، حيث يرى أن التبادلية ضرورية في العلاقة البيداغوجية، لكنه في الوقت ذاته أكد أن تحقيق التبادلية الحقيقية بين المعلم والطالب أمر مستحيل بسبب عدم توازن السلطة في هذه العلاقات. وهذا يعني أن العلاقة لا يمكن أن تكون متساوية أو حوارية بشكل كامل. فالفرق بين "السلطة" و"القوة"، أن الأولى تشير إلى قدرة المعلم على ضبط سلوك الطلاب، بينما تعبر القوة عن القدرة العامة على التأثير. ورغم أن المعلمين يبدون ضعفاء في البداية، إلا أن بناء علاقة شخصية مع الطلاب يمنحهم قوة كبيرة لاحقًا، مما يؤدي إلى مشكلة معاكسة تتمثل في امتلاكهم نفوذًا مفرطا، وبالتالي يواجه المعلم تحدي الحفاظ على التوازن بين فرض الانضباط داخل القسم وبين تبني أساليب تعليمية مرنة تسمح بتفاعل إيجابي مع التلاميذ(Sidorkin,2000,p5).

- **تحفيز المتعلم وتعزيز دافعيته:**

يؤكد "كلاين وآخرون"Kleine et al (2013) على أهمية العلاقات الاجتماعية الإيجابية بين الطلاب (قبل إكمال المدرسة الابتدائية مباشرة) وبيئتهم الاجتماعية (زملاء الدراسة، المعلمون، والعائلة). فمن الممكن التأثير بشكل كبير على الأداء الأكاديمي من خلال معتقدات الكفاءة، وليس فقط خلال السنوات الأولى من الدراسة. فقط إذا حصل الطلاب على دعم محدد من بيئتهم التعليمية لتعزيز ثقتهم في قدراتهم، يمكنهم بناء موقف إيجابي تجاه التعلم.

في هذا الصدد، يمكن الاستنتاج أن للمعلمين فرصة للتأثير على مفهوم الذات لدى الطلاب وتقديم الدعم لهم، وبالتالي فجودة العلاقات البيداغوجية تعد شرطا أساسيا للتعلم الفعال والمستدام. فتحسين جودة العلاقات في الفصل الدراسي له تأثير إيجابي على كفاءة المدارس. (Schmidt–Hertha & Bernhardt,,2022,p14)

- **جودة العلاقة البيداغوجية:**

تمثل جودة العلاقة بين الأستاذ والطالب رهانا بيداغوجيا أساسيًا يؤثر على جودة العملية التعليمية ومدى فاعليتها. فهي عملية ديناميكية تتشكل وفقًا للأدوار الفاعلة لكل من الأستاذ والطالب داخل المؤسسات التعليمية، وتعتمد قوتها على السياق العام، بما في ذلك المناخ التعليمي والثقافة السائدة، إضافة إلى مدى التزام الطرفين، فحسب هاغناور وفوليت (2014) فإن العلاقة البيداغوجية تتحدد من خلال ثلاث محاور رئيسية: العوامل المؤثرة، الجودة، والنتائج. حيث تشير العوامل المؤثرة إلى أن طبيعة العلاقة بين الأستاذ والطالب تتأثر بمستوى التفاعل بينهما وتكراره. أما فيما يتعلق بجودة هذا التفاعل، فإن الجوانب العاطفية والداعمة تلعب دورا أساسيا في تعزيز هذه العلاقة وترتبط النتائج بأثر هذه العلاقة على نجاح الطالب أكاديميًا، ومدى تحفيزه على المشاركة الفعالة وتحقيق أداء دراسي متميز (Okoyo,2022,p73)